

شخصية احمد شوقي

شاهد عصره ، ومعلم جيله

علم فزاد افرايم البستاني ، استاذ الآداب السريية في جامعة القديس يوسف

كتب هنا البحث مقدمة للدرس الاديب ادوار حنه لي
 ٥ شوقي على المسرح . - ولا كان قراء « الفرق » قد
 اطلوا على ذلك الدرس في مهلة السنة الغابئة . كان من
 جهم كذلك ان يطلوا على المقدمة :

الشعراء من لا يتجاوزون تصوير انفسهم ، يدرسونها بدقة واطلاص
 ويصفونها بصراحة وطبيعة ، فلا تحالجهم عاطفة ، ولا يدفعهم امل ،
 ولا يقعد بهم يأس ، الا رأينا أثر ذلك على شعاعهم المخلجة ،
 وفي نبراتهم المضطربة . وكانهم اكتفوا ، من العالم كله ، بانفسهم الحناسة
 ينبوعاً فزاراً متجدد الدقات ، فقلوها اصدق تمثيل .

ومنهم من اصطفتهم الحياة لرسالة افسح مجالاً ، وانبل غاية ، فوفقتهم من
 تمثيل انفسهم الفردية في حالات خاصة ، الى تمثيل النفس البشرية وقد احاطت
 بها مشاكل الحياة المتعددة . واذا بفواصل الزمان والمكان تنهار امام عبقريتهم ،
 واذا بهم شعراء الانسانية الشاملة .

ومنهم من خصهم التاريخ بتشكيل عصورهم فاشهدوا ما يبدو عليها من
 قلق وطمانينة ، واحترام ما فيها من نزعات وسكنات ، فشاركوا اخوانهم
 باللذات والآلام ، وجموا في شخصياتهم بيا تفرق في الجمهور من عواطف غامضة
 تبدو ترة في المرآت الصاخبة ، وطوراً في الفراجع البكماء . واذا هم شواهد
 عصور ، ومعالم احيال .

من هؤلاء الشعراء كان احمد شوقي . ومن هذه العصور القلقة المضطربة
 كان عصره في مصر . وكان الحياة قرنت بين اضطراب عناصر الشاعر واضطراب
 عصره ، فانبئت لنا تلك الزهرة الغريبة بما جمعت من فواقع الاصباغ وخواف

الالوان ، العجيبة بما اثارت من نوافح الراحات ونواعم الطيوب ، حتى انتجت تلك الثمرة اللذيذة بما خالط نضجها من عنوة الفجاجة .

ظهر شرقي مضطرب العناصر الدسرية ، مختلج القزعات الوراثةية . فهو كردي عربي من طعية جده لاييه ، تركي من ناحية جده لوالدته ، يوناني من ناحية جدته . « اصول اربعة في فرع مجتمة » ، كما يقول . بيد انه لم يكن لهذا الفرع من ضابط كاف يوازن بين تلك الاصول فيوحد تزعزعاتها ، ويسوقها جميعاً في ثقافة واحدة . فظلت هائمة تضرب على غير هدى ، تارة تفتقر ، كل في مذهبه ، فتنازع شخصية الشاعر الحائرة بين تلك الرغبات ؛ وطوراً تجتمع معتلجة في تلك الشخصية تشبهها حتى الفوضى . واذا وصف اليونان ، الى حكمة العرب ، الى حس الترك ، الى غرائب الاكراد ، في بوتقة جاشة ، تتواهب وتتناس ، ولكنها لا تتخرج في سبيكة واحدة .

ويشب الشاعر في هذه الفوضى الفنصرية ، فلا يلبث ان يتأثر بفوضى اخرى ثقافية . وقد كان من الصعب ان تكون الثقافة غير فوضى في ذلك العصر . يدرس الحقوق ، ويدرس الترجمة ، ويقرأ كل ما وصل اليه يده من كتب الادب وكتب الشعر خاصة ؛ يقرأ البها . زهير المانع ، ويقرأ ابن مطروح وابن النيه السالكين ، ويقرأ ابا نؤاس الحنيز ، ويقرأ البحتري الخزف ، ويقرأ المتنبى الشاعر ، ويقرأ المعري المفكر ، وفي كل منهم يرى ما يعجبه ويرضي ناحية من شخصيته المركبة .

ويبتقل به الحظ الى مرتبليه يتابع درس الحقوق ؛ فالى باريس ، عاصمة الفن والجمال ، في عصر كان من اوقر العصور عائدة على الفن والجمال . يصل شرقي باريس في حقبة ازدهرت فيها المذاهب الشعرية ، وكثر الشعراء . فلكل فكرة شاعر ، ولكل شهوة شاعر ، ولكل مظهر من مظاهر الحياة شاعر ، بل لكل وهم شاعر . فهناك اليرناستيون والرمزيون ؛ وعبدة الفن للفن ؛ وهناك المغالون في تصوير الطبيعة ووصف الواقع ؛ وهناك من تأخر من المدرسين ومن متأخريهم ارباب الرومانتيم .

هناك كاتول مندس (Catulle Mendès) ، ودزييار (des Essarts) ،

ودي ريكار (de Ricard) واندادهم يونسون البرناس وينمشونه بآثارهم
الايقة ، وهناك هنري كازاليس (Cazalis) يُثير في شعره الرقيق نغمت شرقية
بميدة ؛ هناك فرنسوا كوبيه (Coppée) شاعر العاطفة الناعمة ، وسولي يريدرم
(Sully Prudhomme) شاعر الفكرة الحائرة المترفة . هناك پول ديرويلد
(Déroulède) يهيج العاطفة الوطنية في قلوب الشباب فيتحتسون حتى الموت .
وهناك فرلين (Verlaine) يهيم بادوانه الجدية والحلقة من مستشفى بروسيه
الى الحى اللاتيني ، فالى حلقات الادب ، فالى المواخير والحانات ، فالى المستشفى
راجياً ، منشداً آلامه وآماله ، تركاً على اشراك الحياة قطعاً دامية من تلك
النفس المتنازعة ابداً بين لذعة الشهوات البيسية ولذعة الفضائل السامية . وفوق
هذه الجماعات المضطربة الضاحجة كان لا يزال صوت ثيكتور هونغر يدوي صده
الضخم حتى في حنايا المعفل الادبي فيخضع اعضائه لوصية الشيخ الراحل ،
و«يميتون» بينهم لوكونت دليل (Lecomte de Lisle) ؛ اذا «بشاعر التشارم»
يصبح عضو المعفل الادبي على رغم اعدائه المديدين ، ويصبح «اميراً للشعراء»
كما سيصبح شاعرنا بعد حين .

كلها مظاهر لم تكن بميدة عن شوقي الطالب في باريس ، لو شاء ان يهف
اذنيه اشعر الاحياء ؛ بل كلها مناجح كان من الخلق به ان ينحى بمضها ، لو
شله ان يفتح عينيه فيرى فيها شيئاً لما في نفسه . على انه مال عن الادباء الى
كتب الادب ، وعن الشعراء الاحياء الى المنتخبات من شعر الموتي . فأخذ
بروعة هونغر وقصته الصاخبة ؛ واعجبه قصص الحيوانات في امثال لافونتين ،
وتأثر برقة دي موشيه وصراخه المزللة ، وجرى مع سلاسة لامرئين وغزلته
المانع ، ولا تراه وحل الى لذعة بودلير وحررته . كما انه أخذ ، في ما سبق ،
بروعة المتني ، وأعجب بزخرف البحري ، وتأثر برقة البهاء زهير ، دون ان
يصل الى عن المرعي او لذعة ابن الرومي . وكذا انه قلد تنماء العرب ، بين
النجاح والنشل ، برّب تقليد من عرفهم من شعراء الفرنج ، فنجح وفشل
كذلك .

وهكذا فان الثقافة الفرنسية لم تقوم ما تحمته من اعراج في ثقافته

المرية ، ولم تُنظم تلك الفرضى المصرية .
 ولم يكن حظ مصر ، اذ هبطها شوقي ، باوفر من حظ الثقافة الفرنسية
 في تنظيم تلك الفرضى ، ومصر تتخبط في فرضى سياسية شبيهة بها . كانت
 مصر حائرة مضطربة بين خلافة « المتبوع الاعظم » ، وحماية ملك الانكليز
 وامبراطور الهند ، وسلطة الحديوي المباشرة ، وتزعات ارباب الوطنية من رجال
 السيف والقلم .

شوقي الشاعر الشاب المتدفق شموراً ، المضطرم خيالاً ، يعود من باريس
 الى مصر في اشد ازمته مصر حرباً ، واجدها باثارة الشعر . فماذا يصنع ؟
 وكيف يتجه ؟ واي مذهب يتخذ ؟ الثورة المرابية لم تنطفئ جذوتها بعد ،
 وكبار الوطنيين مشغولون في المناقش ، والاتكليز شديدو الحرص دائرو الحذر ،
 والحديوي يماني المصاعب ويصطدم بالتعبات ، وشوقي . . . يعين رئيساً للشم
 الافرنجي بجمة الحديوي عباس حلمي . هوذا الشاب النازع بالطبع والثقافة الى
 الفوضى والحرية والصراحة يُقيد بواجبات الادارة الرسمية وما تفرضه من تحفظ
 واحتياط وملاينة ومداراة . هوذا المصري الراجع من فرنسا ، سنة ١٨٩١ ،
 حالماً بكل ما يجيش في البلدين من ثورات وطنية ، يصح من دعناة النظام
 المتقر ومن مبري مآتي السلطة المشروعة . هوذا الشاعر ينتقل وجمل سياسة ،
 يستقبل بلطف ويودع ببشاشة ، يدون اعمال سمو الامير ، ويشكر السلطة
 الحامية ، ويهني « المتبوع الاعظم » خليفة المسلمين ، بالاعيان والمواسم . واذا
 بقي له شيء من شاعرية ، بعد هذا ، فلا بأس بان يلهو ببعض الاستهلاكات
 الفزلية ، او ان يبعث ببعض الفلتات الحترية ؛ واذا ست شاعريته قالى مدح
 الانبياء والاولياء على طريقة الخطاطي الصوفيين ، او الى نظم تزيخ العالم يقلد
 به الملاحم الاصطناعية ، او الى معارضة بردة البرصيري . . . رأي حاجة به الى
 الكد وراء المتصمات ، وهو

شاعر « النزيم » ، وما بالنيل ذا اللب

عشرون سنة تنقضي على الموظف الرسمي يستفيد فيها شوقي مالا كثيراً ،
 وكياسة ادارية ، ويستفيد كذلك اكراماً شاملاً واعجاباً عاماً ؛ لانه كما عرف

ان يرضي رواد العصر بتلطفه السياسي ، عرف كذلك ان يرضي طبقات الناس في مصر ، وفي غير مصر ، بروثته الشعرية . يرضي الوطنيين ويرضي الاتكليز ، يرضي المصريين ويرضي الثمانيين ، يرضي المسلمين ويرضي النصارى . اما هل يرضي الشر الحقيقي ؟ اما هل يرضي شخصيته الشاعرة ؟ فذال ما نخال شرقي يجب عليه بالاطننان ، لولا ذاك الكسل العقلي الذي مُني به اثناء تلك الحياة الطويلة المنيعة نعال بينه وبين الجد في سبيل المثل الاعلى .

من الحق ان شرقي كان يطالع بكثرة ، ويطالع فنوناً مختلفة . لا ان مطالع هذه لا تخرج عن مظاهر الكسل العقلي ، بل هي شر مظاهره ، لانها تروم صاحبها بالسل ، ولا عمل الا اضاءة الوقت في تصفح سطحي بعيد عن الدرس والاجتهاد .

من الحق ان شرقي كان يجب تنقيح شعره ، وكانت آماله تنبسط الى ان تنشره الصحف اوسع نشر ، فيقرأه الرملا . ، ويتدارسه الادياب . ولكن على شرط الا يوجهه ذاك التنقيح الى ازعاج نفسه ، والا يعرضه الرملا . بالناقصة ، ولا الادياب . بالتقد . فهو لا يقوى على مجاراة الاحياء ، لا عن شعور بالعجز - لان من ينارى ابا تمام والتنبلي وهوغو لا يخشى مجاراة حافظ واحمد نيم وامثالهما - بل عن هرب من الكد والتعب . وهو لا يطيق النقد ، لان النقد يوضع له ذاك للشعر النفسي النامض بالتقص ، وكان يوقظه من استكانة الى التروير لا يجب ان يعلقها عليه احد .

من الحق انه كان يجب الاطلاع على الجديد من الافكار ، وعلى الحديث من الاكتشافات والاختراعات . الا انه كان يفعل ذلك ليموه على نفسه فيرضيها ، او يظن انه يرضيها ، فلا تنكر عليه كسله ، وهو لا يزال شاعراً بئمة ذاك الكسل . ثم ليرضي الطبعين من الناس ، اذ يقرأون في شعره تلك التلبيحات العامة الى التاريخ والنن والطم والفلسفة ، فيمجبون ، ولا يدرون ان الشاعر يتكلم ، في نيل هذا الاعجاب ، على جهاهم هم ، لا على علمه هو .

من الحق ان شرقي ظل على مظاهر عدة من تلك القرضى التي تمقتها في ما تقدم . ولكنها ، بعد ان قيدها بالنظام الخارجي في الحياة الرسمية وفي

الشعر الرسمي ، جلت الى الحياة الداخلية ، الى الاخلاق ، والى ما ينظم من تلك المقاطع « البيئية » ، ان صح التمييز ، التي يقصر عنها نظر الامير ، ولا يتألمها حكم الجمهور . واذا بشوقي بتلك احياناً من واجبات البلاط ، فتراه في المطاعم الحقة ، مشتياً المآكل الحشنة ؛ ووزله في الطرق المقفرة ييم متصلكاً متسرداً حتى يطرق ابواب احدقائه في ساعات منكورة من الليل ؛ وزاه في مجالس لا تنفذ اليها عين الرقيب ، لاهياً عابثاً . تلك منافذ للفوضى ، وقد قيدت رسياً في حياة القصر . الا ان الشاعر تأثر ، حتى في هذه الفترات ، بمظاهر البلاط الرئيسية ، فوجب عليه ان يجتنب من صرامته وطبعته ، فيتظاهر دائماً بالرصانة ، ويمدح التدن والتورى ، ويكفر من الاشادة بذكر الاخلاق الصالحة . . .

هذا ما جنته تلك الحياة الرسمية السهلة على عبقرية ، لو نضجت حرة ، لتأخرنا بها الشعر العالمي .

وتدور الايام دورتها ، واذا بالامير مُتزل عن عرشه ، واذا بشاعر الامير منفي في الاندلس ، ييكفي على مدينة بكى على اختها بالاس ، ويجول في آثارها الفخمة ، فيعصر عصرها الذهبية ، ويجيها بجياله الحصب ، وقد زاده سن الكهولة توازناً ونضجاً ، ونفحة ربيع المنفى حرة كانت تعوزه في بلاط اميره . فقد اقترب الى الخلافة المروانية منه الى خلافة آل عثمان ، وادنى الى الرب منه الى الترك ؛ حتى اذا عاد الى الكنانة ، وقد تجورت خريطة الشرق الادنى ، فتمخضت الامبراطورية العثمانية عن ممالك وامارات وجمهوريات جديدة ، انقشمت عن نظيره غشاوة الذهب الحديري ، فاقع افق تفكيره ، وانبط جناح خياله ، واتكثرت اعصابه تحس باحاس تلك الشعوب المتبقطة الى النور ، التامضة الى الحرية والاستقلال نهضة الفتى النشيط بعد السبات الطويل . واذا باحمد شوقي يتحول من شاعر الامير الى شاعر الشعب ، من شاعر مصر الى شاعر البلاد العربية ، من شاعر الخليفة العثماني الى شاعر العالم الاسلامي ، بل الى شاعر الشرق على اختلاف ميوله ووزعائه واديته .

ولكن تلك رسالة تتطلب اقداماً نشيطاً وكذا متراحلاً ؛ وشوقي ، وقد جاز الحسين من حياة قضى نصفها في الراحة والرفاهية ، اصبح من الصعب عليه ان يلاقي الحوادث المقبلة ؛ فانقلب يركض وراء الزمن الغالت . يا لآثار الايام ا ويا لانتقام الطبيعة ! عندما كانت المراهب متوافرة لهذه العبقرية الفذة اخذ الشاعر يحلها ، بل يقتلها بالمدايح السخيفة والتهاني المتذلة ، حتى اذا جاء وقت الانتاج المبسر ، حتى اذا نادى العصر شاعره ، طلب الشاعر هذه المراهب فلم يجدها ؛ انما وجد آثارها الناحلة ورسومها الشاخصة وقد مر عليها الزمان ، واخلة الامال . عندما كانت طرق الابتكار ممهدة امامه كان يتنكب عنها الى مجازات التقليد السهل فيجري فيها عن كسل وتراخ . حتى اذا شاق الرجوع الى تلك المسالك الصعبة وانجأ في الابتكار والتجديد ، خائته القوى ، فلم يجد الا التقليد يرتفع به فنور نبوغه . يتوكأ على بعض شعراء الافرنج حيناً ، ويلجأ احياناً الى العرب الاقدمين : يعارض ابا تمام ، ويقلد المتنبي ، ويجري على اسلوب البحتري ، ويجاكي شعراء النزل . . .

وما كان ليرأب بهذه الرّمم صدوع شاعريته ، لولا ان الشرق العربي اعتاد الاعجاب ببعض الكلمات «الطقسية» ، كما اعتادت اذنه تدوّق الموسيقى التقليدية الموحدة النغم . ولا مشاحة في ان شوقي كان من ارباب هذه الموسيقى الماهرين ، ومن سادة المتلاعبين بتلك الالفاظ السحرية . له من هلهلة الشعرية ما يولد المطالع الفخمة الرائحة تفتح للسامعين آفاقاً من الشعر الصافي لا يجدها الا عجزهم عن ارتيادها ؛ وله من عاطفته الشاملة ما ينيله التأثير السريع والشعور البصير لشعور الجمهور ، فيحسّ لشعبه كامل بل لشعوبه . ويهديه لطف حبه الى اختيار الفاظ جلاها الاستعمال مدة قرون ، ومسحها التاريخ بقدره الايجاء ، وسكب عليها الدين صبغة التمديس ، فعدت تحزن بين حروفها قوة على اثاره التذكريات عجيبة ، وتجمع في نبراتها خلاصة ايجاد الشرق الاسلامي على تتابع الاجيال ؛ وكأنها تلك الحزانات الكهربائية المغمسة لا ينالها الخط الموصول حتى تتراحم شراراتها ، وتتدافع تياراتها ، تائرة صانبة . هكذا كان شوقي يرقب جو الجمهور الاسلامي الشرقي ، المضطرب حزناً على اثر الفشل ، او

المرتح طرباً لبعض الانتصارات ، او المتفض حاسة في متابعة آماله المتحددة ، فيطلق فيه تلك الالفاظ السحرية ، وكل منها تلخص ترميحاً رؤسه ، بل عقيدة كلمة ، من امثال «الله اكبر ا» - «يا اخت اندلس» - وما الى ذلك من ذكر محمد وموسى وابن سرىم ، والاسلام والاذان ، وجلق وسروان ، والاهرام ، والفراصة . . . وغيره كثير ؛ يطلق تلك الالفاظ في ذلك الجزء المغمم ، فتتأرجح ، وتتلاقى موجاتها ، وتهبط دوائر مستطيلة ، وكأنها وقعت على السامعين بكل ما ترمي اليه من ترميح لا يريد الحفدة الا محيداً ، ومن ذكريات لا يرونها الا مواقفة للحالة الحاضرة ؛ واذا بالشاعر في كل قلب ، واذا بشعره على كل لسان .

هو شوقي يقول ما يفكر به الجمهور ، ويميز بصراحة وثاقه عما يشمر به الشعب بنمروض واضطراب . فهو شاعر العصر بلا خلاف ، بل هو يلخص في شخصيته الشرق الاسلامي بكل ما فيه من انبساط وانكماش ، من امل ويأس ، من سمي مشر وتواكل مؤلم ، «يفني في فرحه ، ويميز في احزانه» . . . ثم يتجاوز تلك المظاهر السياسية العامة الى رغبات الشعب الحيوية ومرآته اليومية - واكثرها بعيد عن الشر - فيناصر المشاريع الاقتصادية ، ويعلن عن المصروف الوطنية ، ويهتم بشؤون المثال ، ويؤرخ الحوادث المحلية ايأ كانت . يتهيج مع المتجهين ، ويكي مع الباكين . يرى الناس مندفعين الى التناء ، فيظهر رغبته في التلحين ، فيفني ، ويمجد . يرى الفن التشيلي على تقدم ، في مصر ، والاجواق تكاثر وتردهم ، فيجاري السنوق المصري كما وينظم في التشيل ، غير هياب . وان يكن شوقي لم ينبج في التشيل فحاحه في التناء ، فلانه كان ذا ميل فطري الى الموسيقى ، ورغبة في نظم الاغاني ، متد ان عرف عبده الحمولي في بلاط الحديري اسماعيل . ولم تعرف عنه انه مال الى التشيل ، ار اضطلع به ، الا ما ذكر في أخريات ايله من انه كان يكتب الاختلاف الى دور السينما . والسينا والتشيل ظاهرتان منفصلتان للفن ما اتحدتا الا فداً جيداً .

هكذا كان شوقي ، في القسم الاخير من حياته ، سايراً الجمهور في

عواطفه ، دائم الاتصال به ، مطلقاً على ما يعنيه من احداث يستلها في شعره الرائع . ولو كان لمبقرته ، اذ ذاك ، قرة الابتكار لما اكتفت « بالنساء في الفرح ، والزوا في الحزن » بل لبقت الاحداث فهياتها على ما تريد ؛ ولما رضيت بالير في القافلة البشرية بل لتقدمتها هادية الى محجة الحياة المثلى . واكن الابداع صعب على تلك الشخصية في تلك الاحوال . فكان من نصيب الشاعر الكبير ، وقد عجز عن خلق الحديث ، ان يجي القديم ، ويجيد رائئاً ؛ كما كان من حظّه ، وقد قصر عن هدي قومه الى فجر جديد من الشعر العربي ، ان يظلّ شاهد عصره ، ومعلم جيله .

هذه لمحات مقتضبة متقطعة في شخصية شوقي ، وفي ما كان من تفاعل عناصرها الدسوية ، ومن تأثرها باحداث البيئة والمصر . واذاً فهي لا تقتني في درس فنونه الشعرية ، وصياغته النظرية ، وميزاته الخاصة . وكلها . ووضوعات لا يترغ منها الادباء . لمدة طويلة . وليس لنا الآن الا التمني بان ينهض لدرسها من يهتمون بما اختص به صاحب هذا الكتاب الذي تقدمه الى القراء ، فيسيرون على طريقه القويم ، ويتقنون مدائح شوقي ، وغنائياته ، وملاحمه ، وامثاله ، كما انتقد رواياته التمثيلية ؛ ويتوقفون ، ان والا هم الحظ ، الى ما توفرت اليه من شمول الدرس ، ودقة البحث ، ووضوح الاسلوب ؛ حتى جعلنا ، وبين يدينا هذه الباكورة الشهية ، نتفاءل خيراً بما سيهدي الينا من ثمار فاضحة ، ان شا . الله .